رأي في اللغة الفصحى وتعليمها

# دراسة اللغة العربية

## الفصحى في مدارسنا المصرية

لعبد الله امين

تحاول المدرسة المصرية منذ نشأتها للآن ، أن تستقيل عثرات اللغة العربية الفصحى وتنهض بها من كبوتها وتنفض عنها غبار العصر التركي الذي لبث في مصر (٥٤٠) أربعين وخمسمائة سنة وتجعلها لغة التخاطب والخطابة والكتابة لأمور كثيرة منها

١ — أن اللغة العربية الفصحى خير اللغات السامية سواء أكانت أمهن أم اختهن ومن خير اللغات الحيّة الراقية الحديثة ان لم تكن ارقاهن بما شرفت به من ثروة في الالفاظ وجمال في الأسلوب وضوابط قلّما تختل وقلما يكون لها نظير في لغة اخرى

٢ — وان هذه اللغة الفصحى لغة القرآن الكريم والحديث الشريف وهما اصل الدين الاسلامي وهو اعظم كنوز ثروتنا الخلقية والثقافية والأدبية ومن اعظم الروابط الاجتماعية للشعوب العربية الاسلامية وفي الاحتفاظ بها احتفاظ بهذا الدين الحنيف وبهذه الرابطة المتينة

٣ — وان هذه اللغة هي لغة الكتّاب لدى الشعوب العربية الاسلامية واللغة كالدين من اعظم الروابط الاجتماعية وفي الاحتفاظ بها وردّ لغات هذه الشعوب العامية اليها احتفاظ بوحدة هذه الشعوب

٤ — وإننا اذا شئنا أن نجعل لغتنا العامية لغة كتابة ذات ضوابط محرّرة باصلاح مفرداتها وأساليبها لم نجد خيراً من أن نردها الى أصلها وهو العربية الفصحى بل هي حين تحرّر وتهذّب تصير من تلقاء نفسها العربية الفصحى

هذه بعض البواعث على محاولة احياء اللغة العربية الفصحى غير أن المدرسة المصرية كأنها بهذه المحاولة تحاول أمراً مستحيلاً فلا تبلغ ما تريد بهذه المحاولة وذلك لأمور منها :

١ — ان تعليم أبنائنا الاحداث في مدارس المرحلة الأولى كالابتدائية لغة أجنبية وتعليمهم في المرحلة الثانية لغتين اجنبيتين يكاد يقضي على تعليم اللغة العربية فيهما فلا بد من

اجتناب تعليمهم لغة اجنبية واحدة في المرحلة الاولى والاقتصار على تعليمهم لغة اجنبية واحدة في المرحلة الثانية

٢ — أنّ اللغات الأعجمية تحتل المكان الأرفع في التخاطب والكتابة في المتاجر والمصارف والشركات والأندية الأجنبية التي ينشاها ويعاملها المصريون بل وفي بعض منازلنا وبعض دواوين حكومتنا

٣ — انّ اللغة العامية تطغى في ميدان التخاطب على اللغة الفصحى في منازلنا وأسواقنا ومجتمعاتنا وفي مراكز أعمالنا وأنديتنا بل وفي مدارسنا وفي دروس اللغة العربية نفسها وفي مجالس علمائنا وأدبائنا

٤ — ان اللغة العامية تطغى في ميدان الكتابة على اللغة الفصحى في مواطن كثيرة منها المتاجر والمصانع والشركات المصرية وفي كثير من دواوين الحكومة وفي الصحف الأسبوعية كما تطغى في ميدان الالقاء في كثير من المسارح على الفصحى

وذلك لجهل الكتاب في هذه الدوائر الأهلية والحكومية اللغة الفصحى ولأن بعض كتاب الصحف الاسبوعية والقصص التمثيلية وغير التمثيلية الذين يجنحون الى اختيار بعض الألفاظ العامية بدل نظائرها العربية يزعمون انّ المعنى لا يتضح ولا يبلغ المراد من نفوس الجمهور إلاّ إذا أديَ باللفظ العامي فاذا كان ذلك حقًّا فان من الحق كذلك بل الحق الذي لا شك فيه أن التزام الألفاظ العربية الصحيحة وتكرارها كفيل بفهم العامة وحفظهم إياها كما يفهمون ويحفظون الألفاظ الأعجمية التي انسلت الى لغتنا العامية من اللغات الأجنبية على أنهم إن لم يفهموا الفصيح الاّ نصف فهم لا يكون ذلك ثمناً غالياً لاحياء الفصحى التي لا تلبث أن تحلّ في مدارك الجمهور وقنوعه محلّ العامية وتبلغ منها مبلغها

فاذا كان تصحيح لغة الكتابة في دوائر الأعمال الأهلية وبعض الحكومية عسيراً بعض العسر فان تصحيح لغة الصحف والمسارح من أيسر الامور وهي انما أنشئت للتثقيف والتهذيب كالمدارس واللغة من خير ادوات التثقيف والتهذيب

فلا ينبغي لنا ان نتركها تهدم ما تبنيه المدرسة وتأتي على بنيانه من القواعد

لا يبلغ البنيان يوماً تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

٥ — شيوع الامية وتغلغلها في البلاد من أكبر العوائق في سبيل إحياء اللغة الفصحى. فالقراءة والكتابة من أعظم الوسائل وأشدها تأثيراً في رواج اللغة الفصحى وتيسير التخاطب والخطابة والكتابة بها

٦ — ضعف الروح القوميّ لضعف الامة الحسي والمعنوي الذي جعلها تستهين بكل وطني وإن عظم وتستعظم كل اجنبيّ وإن هانَ فلا يزال في الخاصة ويقدمهم العامة من يفضل اللفظ الأعجميّ على العربي وإنْ بدَّ العربي العجمي حلاوة وجمالاً وحسن دلالة لا لشيء إلاّ لان ذاك أعجميّ وهذا عربيّ وكني فأبيها أخفّ وأحلى Grand father اوجد و Uncle أو عمّ او خال والعربي نصّ والفرنجي اعم

٧ — اعتقاد طلاب اللغة العربية الفصحى انهم في غنىً عنها في حياتهم العملية — وهذا الاعتقاد وحده كافٍ كل الكفاية لحملهم على الاستخفاف بها وبدراستها والانصراف عنها وفي هذا او ذاك قضاء على الجهود التي تبذلها المدرسة لاحياء هذه اللغة الشريفة

٨ — وزيد الطين بلة الخطط العامة التي تُسخط لدراسة هذه اللغة في المدارس . وهذه الخطط هي جرثومة الداء هي شر البلية

***

إن دراسة اللغة العربية تقوم في مدارسنا الحديثة منذ نشأتها من عهد باعث النهضة الحديثة محمد علي باشا للآن على عماد واحد هو دراسة علوم اللغة من صرف ونحو ومعان وبيان وبديع وعروض وقافية

واذا كنا نعلم ان الغاية المقصودة من دراسة اللغة العربية هي صون اللسان عن الخطإ في القراءة والتخاطب والخطابة وصون القلم عن الخطإ في الكتابة فقد اتممنا الغاية فضممنا الى مناهج الدراسة المطالعة والانشاء وأخيراً وفي بعض الاحيان المحادثة وفن الالقاء وأما الوسيلة وهي دراسة اللغة مفرداتها وأدبها من نثر وشعر دراسة مقصودة لذاتها بما تستحق من العناية فقد بقيت منسية الاّ في الأيام الاخيرة اذ وضعنا في مناهج متن اللغة والنصوص الأدبية ولكن بقي المقام الأول لدراسة علوم العربية وهي الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع وما اليها كالعروض والقافية في التعليم الخاص

وهذه العلوم ليست هي اللغة العربية وانما هي فلسفة اللغة العربية التي تعرف بها اسرار اللغة ووجوه الحسن والجمال فيها . وما كانت هذه العلوم لتطبع الألسنة والاقلام بطابع اللغة الفصحى وليس فيمن أخذنا عنهم هذه اللغة الشريفة من بلغاء العرب وفصحائهم خطباؤهم وشعراؤهم من عرف شيئاً من هذه العلوم لا في الجاهلية ولا في صدر الاسلام . وقد يكون بعد ذلك في المتعربين في كل عصر من العصور التالية من الأدباء الذين درسوا شيئاً من هذه العلوم من أوتي مع هذه الدراسة ملكة الشعر والخطابة او الكتابة باللغة الفصحى فان كان

ذلك كذلك في أوقن ان ذلك لم يكن لدراستهم هذه العلوم وانما كان لدراستهم شيئاً آخر هو موضوع هذه العلوم هو اللغة نفسها على نحو ما سأبينه في هذا المقال

وان كبار الخطباء والشعراء والكتاب المعاصرين لم يكونوا كذلك لأنهم درسوا هذه العلوم وانما كانوا كذلك لشيء آخر هو دراسة اللغة نفسها . فما كان شوقي وحافظ من كبار الشعراء ولا كان الويلحي والمنفلوطي من كبار الكتاب ولا كان سعد ومصطفى كامل من كبار الخطباء لأنهم درسوا فلسفة اللغة العربية وهي الصرف والنحو والمعاني والبيان وما اليها وانما كانوا كذلك لأن الشعراء منهم عكفوا على دواوين الشعر يدرسونها ويتذوقون ما فيها من جمال ويحفظون منها آلاف الأبيات ويحاكونها ولأن الخطباء والكتاب منهم عكفوا على جيد المنثور القديم والحديث وقتلوه درساً وحفظاً ومحاكاة

فلا ينبغي لنا بأية حال من الاحوال ان نعلم ابناءنا فلسفة اللغة قبل ان نعلمهم اللغة نفسها وهي موضوع هذه الفلسفة تعليماً وافياً بالغرض كما لا ينبغي لدارس علوم الطب ان يدرس شيئاً منها قبل ان يدرس موضوعها وهو جسم الانسان نفسه دراسة وافية فان فعلنا ذلك فقد جعلنا وكنا « كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه »

***

وقد فعلنا ونحن — رجال اللغة العربية — الملومون دون غيرنا لأننا نحن الذين نضع مناهج اللغة العربية لجميع المدارس ونلزم أبناءنا في جميع مراحل التعليم حتى الابتدائية منها ان يدرسوا فلسفة اللغة ، اما اللغة نفسها وهي موضوع هذه الفلسفة فلا نصيب لها من عنايتنا الا قبل دراسة الفلسفة ولا بعدها الا في الأيام الأخيرة حين علمنا خطأنا إذ اخذنا نضع في المناهج مع كثير من التردد والاحجام طوائف من ألفاظ اللغة تحت عنوان « متن اللغة » وطوائف من أدبها تحت عنوان « نصوص ومحفوظات » ولم يكن لهذا وذاك وهو اللغة نفسها وهو الجدير بالدراسة وهو الذي يطبع الألسنة والأقلام دون غيره بطابع اللغة الفصحى ، ما يستحقه من عناية الواضعين والمتعلمين والمعلمين

ولعل السبب في انصرافنا عن دراسة اللغة العربية نفسها الى دراسة فلسفتها هو ظننا أن اللغة العامية هي اللغة العربية محرفة بعض التحريف ، وانناما دمنا نعرف اللغة العربية ولو محرفة بعض التحريف نستطيع أن نصححها ونحييها بدراسة فلسفتها وهي علوم الصرف والنحو والبلاغة وذلك فن غير صحيح لأنه ان كان بين اللغتين تقارب من وجه فان بينهما تباعداً من وجوه لا يرأب صدعه دراسة هذه الفلسفة

فان نحو ثمانين في المائة من الكلمات العامية كلمات عربية ولكنّ اكثر هذه الكلمات محرّف ولا ينفع في إصلاحه وردّه الى الصواب علم من هذه العلوم التي اعتمدنا عليها في إحياء اللغة العربية الفصحى وانما ينفع في احيائها شيء واحد لا أقل ولا اكثر هو موازنة بين هذه الالفاظ العاميّة المصحفة وبين اصولها الصحيحة من اللغة الفصحى وتكليف التلاميذ حفظ الصواب والنطق به وهجر المحرّف وتدريبهم على ذلك ومراقبتهم مراقبة دقيقة لالزامهم التزامه

وإن أساليب اللغة العامية هي أساليب اللغة الفصحى مع كثير من اللحن والتحريف . فأما اللحن فكتصيب الخبر في قولنا « دول ظالمين » و « إحنا آمنين » مثلاً فهو بلا نزاع موضوع علم النحو وحده . أما بقية علوم اللغة فلا مجال لها في تصحيح هذا اللحن . ومع هذا فان دراسة علم النحو وحدها لا تكفي لتصحيح هذا اللحن ما لم يصحبها التدريب الكافي بقراءة الكتب الصحيحة والمشكولة شكلاً كاملاً وبالكلام الصحيح الا كما تغني دراسة فن الموسيقى من غير تدريب على آلة من آلاتها . وان نحن دربنا التلاميذ على النطق الصحيح لأمثال هذه الاغلاط استغنينا عن دراسة علم النحو . واما التحريف في الاساليب او في اركانها فكتحريف هؤلاء حتى صارت «دول» وكتحريف نحن حتى صارت « إحنا » وكتحريف قاعمين حتى صارت «آمنين» وكادخال حرف الجر على الفعل المضارع نحو بشرب وبكتب وكالحاق الشين بأواخر الأفعال او الحروف نحو ما كتبتش وما ألمسش ومش عارف فلا مجال لعلم النحو ولا لغيره من علوم العربية المذكورة في تصحيحه وانما الذي ينفع فيه الموازنة بين العامي والفصيح والاكثار من دراسة الأدب شعره ونثره وقراءة الفصيح من الكلام ومحاكاته في التخاطب وتدريب التلاميذ على ذلك وأخذهم به بيقظة وحزم وبلا هوادة

ويبقى بعد ذلك الأدب العامي والأدب العربي من نثر وشعر ففي اللغة العامية حكم وأمثال ذوات معان شريفة ولكن يعوزها الاسلوب الفصيح ، وفيها امثال وحكم سخيفة المعنى واللفظ والاسلوب . اما الشعر العامي الذي تصاغ به الأغاني والاناشيد العامية وغيرها فليس له اوزان معينة ولا قواعد مضبوطة ويقابلها في اللغة الفصحى امثال وحكم نثرية وشعرية وقطع أدبية شعرية ونثرية بلغت الذروة والغارب في شرف المعاني وسمو الاساليب والبلاغة وهنا تنعدم المسافة والخلاف بين اللغتين او اللهجتين لكن الفصحى مع سمو معانيها وبلاغة اساليبها يمكن العامة ادراكها فان كان في ذلك شك فلا شك في ان صياغة الامثال والحكم والاغاني العامية في اساليب فصيحة تلائم مداركهم تسهل عليهم ادراكها ويزيد الامر سهولة نحو الامية واشاعة القراءة والكتابة

( للمقتطف بقية )